الفصل السادس

صناعة ابن الرومى

يتفق لقارئ الشعر أن يعرض له فى مطالعاته بيت غير منسوب إلى صاحبه فينسبه إلى شاعر معروف عنده ثم يجد بعد البحث أن فراسته قد صدقت وأن البيت لذلك الشاعر بغير خلاف، ولكنه قد يعلم السبب الذى دعاه إلى نسبة البيت إليه وقد يتعذر عليه أن يرد ظنه إلى سبب غير البداهة التى لا تعلل. لأن سمات الشعراء التى تبدو فى قصائدهم وأبياتهم بعضها ظاهر يسهل تتبعه والاستدلال عليه وبعضها خفى يجرى فى الكلام مجرى الملامح فى الوجوه. تعرفها وتعرف بها الأبناء والآباء ولكنك لا تردها إلى سبب محدود.

وليس كل الشعراء ذوى ملامح واضحة يعرفهم بها القراء، ففى العربية مثلا ألوف من الشعراء لا تعد منهم مائة بين أصحاب الملامح الواضحة التى تعرفهم بها فى القصيدة الواحدة بله البيت الواحد. وفى طليعة هؤلاء من الشعراء المحدثين - غير ابن الرومى - المتنبى والمعرى والشريف الرضى، والبقية درجات فى هذه الخصلة تعرفهم بسهلوة حينًا، ولا تعرفهم حينًا إلا بعد جهد وتحقيق.

بعض هذه الملامح أو العلاقات نفسى لا نعود إليه فى هذا الفصل لأنه سبق فى مواضع من الفصول المتقدمة، وبعضه لفظى يرجع إلى الصياغة وأسلوب التعبير والنزعة الفنية التى ينفرد بها الشاعر بين الشعراء وأن تساووا فى الإجادة كما ينفرد الجميل بين ذوى الجمال بسمة خاصة تستحب فيه وإن تساووا كلهم فى الجمال. وهذا الذى نعنيه بالصناعة ونتم به مباحث هذا الكتاب.

فالعلاقات البارزة فى قصائد ابن الرومى هى طول نفسه وشدة استقصائه

المعنى واسترساله فيه، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النظاميين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة أبياتًا متفرقة يضمها سمط واحد، قل أن يطرد فيه المعنى إلى عدة أبيات وقل أن يتوالى فيه النسق تواليًا يستعضى على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير. فخالف ابن الرومى هذه السنة وجعل القصيدة "كلا" واحدًا لا يتم إلا بتمام المعنى الذى أراده على النحو الذى نحاه، فقصائده "موضوعات

كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهى حتى ينتهى مؤادها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها، ولو خسر فى سبيل ذلك اللفظ والفصاحة.

ولا ريب أن هذا الاستقصاء كان سببًا من أسباب الإطالة ولكنه لم يكن كل السبب، لأن ابن الرومى كان يطيل القصائد حفاوة بالممدوحين وإكبارًا لشأنهم وإظهارًا لعنايته بإرضائهم، وكان يرى فرضًا عليه للممدوح أن يستصعب ويستسهل، فإذا طرق القوافى السهلة اعتذر من تقصيره كما قال لعبيد الله بن عبد الله من قصيدة نيف على سبعين ومائتى بيت:

كل مدح فى غيركم فمثاب ... ما أثيبت عبادة الأوثان
هاكها، لا أقول ذاك مدلا ... قول ذى نخوة بها وامتنان
بين أثنائها مديح نفيس ... من لبوس الملوك والفرسان
ذو قواف كأنها حلق الأصـ ... ـداغ فى البيت من خدود الغوانى
راق معنى ورق لفظا فيحكى ... رائق الخمر ى رقيق الصحان
إن تكن سهلة القوافى فليست ... فى المعانى بسهلة الوجدان
فابتذلها فى يوم لهوك واعلم ... أنها بعد من ثياب الصبيان
وأبسط العذر فى ارتخاص القوافى ... وأتباعى سهولة الأوزان

أنت ألجأتنى إلى ما تراه … بالذى فيك من فنون المعانى
أى وزن وأى حرف روى … لهما بالمديح فيك يدان
ضاق عن مأثراتك الشعر إلا … فعلات مفاعل فاعلان
ليس مدح يفى بمدحك إلا … صلوان المليك فى القرآن
لا ولا حمد كفء نعماك إلا … حمد سبع من الكتاب مثان

أو كما قال لأبى القاسم التوزى الشطرنجى من قصيدة ناهزت مائة وخمسين بيتًا:

ولك العذر مثل قافيتى فيـ … ـك اتساعًا فإنها كالفضاء
وتأمل فإنها ألف المد … لها مدة بغير انتهاء

وله رأى فى إطالة الشعراء وإطالته يقول فيه:

كل امرئ مدح امرءًا لنواله … وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لولم يقدر فيه بعد المستقى … عند الورود لما أطال رشاءه
غيرى فإنى لا أطيل مدائحى … ألا لأوفى من مدحت ثناءه
وأعد ظلمًا أن أقل مديحه … عمدًا وأسخط أن أقل عطاءه

على أنه كان يستريح إلى الإطالة كما يستريح "الجواد الكريم" إلى سعة المضمار، لأنها تشبع لذة القدرة على النظم والتمكن من اللغة وتنفى ظنه العجمة التى كانوا يعيرونه بها ويتهمونه فى شعره من أجلها . . فلغبطة فى نفسه - لا لإرضاء الممدوح وحده - كان يركب القوافى الصعبة ويتعمد رياضة الحروف العصية، فيذل له أعصاها حتى الثاء والخاء والذال والزاى والظاء والغين والهاء وغيرها من الحروف النادرة فى الروى الناقصة فى شعر أقدر الشعراء، وكانت فيه غيرة القول ونخوة المنافسة وهمة الوثوب إلى الغاية. فكان هذا "الجواد الكريم" يأرن للسباق كلما مرت به خيل السباق!

فإذا سمع الكلام الجيد لم يبرح أن يعارضه بكلام من بحره وقافيته ومعناه، ولم ينس أن يجرب قوته إلى جانب كل قوة ويحرك شاعريته إلى جانب كل شاعرية. ففي ديوانه معارضات كثيرة للنابغة وأبى مسلم وأبى نواس والحمدونى ودعبل وغيرهم ممن تروى لهم الأبيات المستحسنة ولاحكم المأثروة: ومثل هذا لا يقصر فى المضمار إذا نشطت القريحة وتفتحت أشواط الكلام.

وحبه هذا اللمعارضة وتجربة القدرة هو الذى كان يدعوه إلى النظم فى هذا المعنى أو ذاك من المعانى الطريفة التى كانت تروقه فى شعر بعض الشعراء. كالمتأنق المغرم باللبس الجميل يستملح الكساء على لابسه فيود لو يكون له كشاء من طرازه وصنفه ولكنه لا يفكر فى سرقته واغتصابه، مثال ذلك: قال أبو تمام:

غربته العلى على كثرة الأهـ ـل فأضحى فى الأقربين جنيبًا

فأعجب هذا المعنى ابن الرومى فقال فيه:

رب أكرومة له لم نخلها قبله فى الطباع والتركيب
غربته الخلائق الزهر فى النا س وما أوحشته بالتغريب

وقال:

أعاذك أنس المجد من كل وحشة فإنك فى هذا الأنام غريب

وقال:

فأنس الله نفسًا أنت صاحبها فإنها من معاليها بمغترب
. . . . . .
لولا عجائب لطف الله ما نبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وقال:

وحيد فريد فى المجاهد آنس بوحدته مستأثر بالفضائل
الله يكلؤه والله يؤنسه فإنه بمعاليه قد اغتربا

ويروى صاحب الأغانى بيتًا آخر نظر إليه ابن الرومى مثل هذه النظرة إذ يقول إبراهيم بن العباس:

لفضل بن سهل يد تقاصر عنها الأهل
فببطنها للندى وظاهرها للقبل

فيقول ابن الرومى:

أصبحت بين خصاصة ومذلة والمرء بينهما يموت هزيلا
فامدد إلى يدًا تعود بطنها بذل النوال وظهرها التقبيلا

وجاء فى الجزء الثالث من زهر الآداب أن الحسين بن الضحاك أنشد أبا نواس قوله:

كأنما نصب كأسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

فنعر نعرة منكرة. فقال له الحسين: مالك؟ فقد رعتنى! قال هذا المعنى أنا أحق به منك، ولكن سترى لمن يرى. ثم أنشده بعد أيام:

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبًا

قال صاحب زهر الآداب: "وقال ابن الرومى فكان أحسن منهما:

أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس
فكأنها وكان شاربها قمر يقبل عارض الشمس

فهذه المآخذ القليلة جدًا فى شعره تعاب ولكنها أخلق بأن تعد من المعارضة والمسابقة ولا تعد من السرقة والغضب. أو هى على كل حال ليست من سرقة المعدم الذى لا رزق له إلا غيره. لأنها لو سقطت من شعره جملة

وسقط معها عشرة أضعافها لما نقصت ثروته ولا مست قدرته على التوليد والابتكار أقل مساس. ولو جازت المقاصة فى هذا الباب لكان ابن الرومى دائبًا طالبًا ولم يكن مدينًا مطلوبًا، لأن ما أخذه من الشعراء أقل بكثير مما أخذه منه الشعراء.

وهناك المعانى الشائعة والنكات الشعبية العامة التى ليست لأحد ولكنها لكل أحد. أى التى يأخذ منها كل إنسان ويضيف إليها كل إنسان، أو التى هى كالهواء يستاوى منه نصيب من يشاء. فمن هذه المعانى الشائعة حتى فى هذا الجيل وحتى بين الأميين الذين لا يقرأون الشعر والأدب أن اللحية تشبه بالمخلاة. وينسب إلى سعيد بن وهب فى كتاب الوزراء والكتاب أنه قال فى قصة لا محل لذكرها هنا:

قل لمن رام بجهل ... مدخل الظبى الغرير
بعد ما علق فى خد ... يه مخلاة الشعير
ليته يدخل إن جا ... ء من الباب الكبير

وفى كنايته عن اللحية "بمخلاة الشعير" على هذه الصيغة ما يفيد أن النكتة "معهودة" وأن الإشارة إليها على هذا النحو غمرة مفهومة، فمن الخطل فى النقد أن يقال أن ابن الرومى عمد إلى بيت سعيد بن وهب فسرقه حين قال:

علق الله فى عذاريك مخلا ... ة ولكنها بغير شعير

فإن سعيد بن وهب وابن الرومى فى هذا الاقتباس يستويان، ويزيد ابن الرومى بتصرف جديد فى المعنى . . وهو أن المخلاة فارغة!

وقد يلحق بهذا قول صاحب الصناعتين بعد ما أورد البيتين الآتيين مثلا للمبالغة فى الهجاء:

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

فهو يقول: "والناس يظنون أن ابن الرومى ابتكر هذا المعنى وإنما أخذه مما حكاه أبو عثمان . . أن بعضهم قبر إحدى عينيه وقال أن النظر بهما فى زمان واحد إسراف" فصاحب الصناعتين أصاب حين نفى ابتكار ابن الرومى للمعنى ولكن من تراه أولى منه بفضل الابتكار. ولقد كان ابن الرومى يخطئ لو أنه عدل عن نظم معناه هذا لأن أبا عثمان سبقه بتلك الحكاية، فحسبه منه أنه تصرف فيه وأنه مسح المبالغة عنه، لأنه لم يقل أن "عيسى" ينفس من منخر واحد ولكنه قال أنه لو استطاع لفعل!

لكن الحذلقة التى لا يقاس إليها شىء من هذا هى زعم بعض النقاد أن ابن الرومى سرق البيتين اللذين أنشأهما قبيل وفاته، وهما:

غلط الطبيب على غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار

والناس يلحون الطبيب وإنما خطأ الطبيب إصابة المقدار

فأبو عبد الله بن عبدوس الجهشيارى صاحب "كتاب الوزراء والكتاب، يروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال: "إذا نقصت المدة كان الهلاك فى العدة" ثم يزعم أن ابن الرومى سرق البيتين من هذه الكلمة . . وصاحب زهر الآداب يزعم أنه أخذهما من يحيى بن خالد حين "دخل على الرشيد فأخبر أنه مشغول فرجع فبعث إليه الرشيد" خنتنى فاتهمتنى. فقال إذا نقصت المدة كان الحتف فى الحيلة. والله ما انصرفت إلا تخفيفًا".

ولا نظن أن عصرًا مضى من عصور الإسلام خلا من أناس يؤمنون بأن الحذر لا يغنى من القدر، أو يقول عامتهم كما يقول العامة فى زماننا "وقت القدر يعمى البصر". فقول ابن الرومى أن "خطأ الطبيب إصابة المقدار" إنما هو عقيدته لا يزعم أحد أنه سرقها إلا إذا زعم أن المسلم فى هذا العصر

يسرق عقائده من المسلمين فى العصور السابقة! ثم يبقى بعد ذلك أن قوله "خطأ الطبيب إصابة المقدار" هو أبلغ تعبير جديد عن ذلك المعنى القديم. وما كان النقاد ليتورطوا فى مثل هذا النقد لولا أن التعسف فى إظهار السرقات كان فى زمن من الأزمان - أو فى زمن الجمع والتأليف - آيتهم على سعة الرواية والعلم بأقدار الشعراء.

وتلاحظ فى صناعة ابن الرومى لازمة الأفعال المزيدة والمشتقات التى يستخدم منها من جميع الصيغ والأوزان: فأسماء الفاعل والمفعول والزمان والمكان وصيغ التفضيل والمبالغة والصفات المشبهة والمصادر تكثر فى شعره كثرة لم نلاحظها فى شعر غيره، ونحسب أن الإفراط فى استخدام المشتقات والأفعال المزيدة هوالوسيلة التى لابد منها للشاعر العربى الذى يريد أن يتناول المعنى من جميع نواحيه ويتدرج به فى مختلف درجاته. إذ ليس فى اللغة العربية ظروف كالظروف التى يشتقها الإفرنج من معظم الصفات والأسماء بغضافة صغيرة فى أول الكلمة أو فى آخرها فتدل على المعنى المقصود وتدل كذلك على اختلاف الدرجة والقوة فى أداء ذلك المعنى. فإذا أراد الشاعر العربى أن يلتفت إلى هذه الفروق فلابد له من الاستعانة على ذلك بالمشتقات والأفعال المزيدة كما كان يفعل ابن الرومى. إلا أنه كان يسرف فى جمعها معًا حتى تنبو بها الأذن فى بعض الأبيات. كقوله:

صاغة صواغة صيغًا بدعًا لم تلق فى خالد

أو قوله:

أبصر بيضاء فى القذال فلا نفر كنفر رايته نفرة

أو قوله"

يترك بالحول حول حولها وهو سواء وموق مائفها

أو قوله:

قلت أن تغلبوا بغالب مغلو ب فحسبى بغالب الغلاب

وهى ركاكة منه كان ينساها فى استطراده وربما كان يهونها عليه وسواسه. لأن طبيعة الموسوس لا تنفر من التكرار كما تنفر منه سائر الطبائع. على أنه كان يجمع بعض المشتقات والحروف المتشابهة المخارج فتساغ - وقد تستحسن - فى أصعب القوافى كما قال فى الجيمية:

سلام وريحان وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج

ولا برح القاع الذى أنت ربه يرف عليه الأقحوان المفلج

فإن للراء والحاء "راحد" فى القلب تزداد بالتكرار وتمهد لما بعدها من الظل الممدود والتضعيف المقبول فى هذه القافية العصية.

أو كما قال من قافية الخاء:

يا صارخًا فى جموع ليس تصرخه للظالمين غدًا فى النار مصطرخ

أو من قافية الفاء:

ومنعم كالماء شفى ذا الصدى كشفائه ويشف مثل شفيفه

ويوقعه الاستطراد - ولك أن تقول الاستغراق فى المعنى - تارة فى إهمال اللفظ وتارة أخرى فى الأساليب النثرية التى لا ينفسح غيرها للإسهاب والإطناب والتفصيل والتفريغ والمراجهة والاستدراك. فينظم فى هذه الحالة وكأنه ينثر، إلا أنه لا يخو من الشاعرية ولا يسف إلى طبعة "المتن" المنظوم و "الألفيات" التى ليس فيها من الشعر إلا أنها مورونة مقفاة.

ومع هذا تستطيع أن تقول أنه لم يجعل اللفظ شغلا شاغلا فى صناعته ولم يحفل به إلا لأداء المعنى الذى يريده. فيخيل إليك وأنت تطرد فى قراءته أنه يرتجل القصائد ارتجالا ويفيض بها فيضًا لمطاوعة لفظه وغزارة مدده. فهو يجيد فى تركيب أبياته وأحكام قوافيه ولكنه لا ينتزع الإجادة بالجهد

والتربص، وما عليه إلا أنيعنى ما يقول فيقول ما يعنى بغير إخلال ولا التواء، وما عليه إلا أن يرسم فيجيء البناء على ما رسم وتقوم الأركان على ما دعم.

ومن الشعراء من تلمح الكلمة فى قصيدة وكأنها تمن على الشاعر بفضل وتستطيل بدالة. لأنها أطاعته ولبت رجاءه ورضيت بمقامها فى حظيرته. فإذا بحثت عن أمثال هذه المفردات والتراكيب فى قصائد ابن الرومى فلست واجدها هناك، لأن كلماته تقبل إلى مواضعها وكأنها تعلم أن الفضل فى مقامها للشاعر لا لها وأن الدالة فى اختيارها له لا عليه، ومن ثم لم يشغل باللفظ ولم يدل على معناه أثر الجهد فيه، وبهذا سلم من لعب الجناس اللفظى والمحسنات المموهة مع أنه نشأ فى العصر الذى نشأت فيه هذه المحسنات، وعجيب هذا منه وهو المتطير الذى كان يلقى باله إلى أقل تجانس فى الكلمات وأضعف تشابه فى الحروف ليسترخج منه النذر والبشائر ويعلق عليه القنوط والأمل، ولكنه عجيب فى الظاهر دون الحقيقة. لأنه إنما كان يبالى بالكلمات حين كان يأخذها مأخذ المتطيرين، وهى حينئذ لها معنى عنده ومن ورائها نبأ وفيها شعور. فليست هى خواء ولا تمويها ولا بهرجًا زائفًا كبهرج العابثين والمزوقين، إنما كان يجانس لمعنى يراه هو ويراه من يتطير مثله ولا يجانس لتزويق فارغ ولهو سخيف، فإذا لم يكن متطيراً فلا جناس ولا اكتراث باللفظ إلا لما فيه من معنى ظاهر مستقيم وما له من فصاحة ونضارة، أو يتفق له جناس اللفظ كما كان يتفق للشاعر الجاهلى والشاعر المخضرم قبل عهد التنميق والصناعة، فلا غرابة فى أن تجد له أو لشاعر مخضرم مثل هذا البيت:

فيسيبك بالسحر الذى فى جفونه ويصيبك بالسحر الذى هو نافثه

أو مثل هذا البيت:

نصيب إذا حكمت وإن طلبنا لديك العرف كنت حيا تصوب

أو مثل هذا البيت:

ليس ينفك طيرها فى اصطحاب تحت إظلال أيكها واصطخاب

وهكذا كان فى كل تجنيسه الذى لا تعسف فيه وليس هو بالكثير البارز فى ديوانه الكبير. فإذا جنس فى غر ذلك فهو عابث متعمد للعبث وليس بملفق محسنات ولا بطالب تزويق كما قال:

لو تلفعت فى كساء الكسائى وتلبست فروة الفراء
وتخللت بالخليل وأضحى سيبويه لديك رهن سباء
وتكونت من سواد أبى الأسـ ـود شخصًا يكنى أبا السوداء
لأبى الله أن يعدك أهل العـ ـلم إلا من جملة الأغبياء

فالذى يقرأه هنا لا يخطر له بتة أنه يزوق ويزخرف ولا يشك لحظة فى أنه يعبث ويهزل، وأنه لا يحاول أن يبيع الناس بهرجًا بثمن ذهب وعرضًا بثمن جوهر.

أما ما يستشهد به البديعيون من كلامه كقوله فى غير الجناس:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم فى الحادثات إذا دجون نجوم
فيها معالم للهدى ومصابح تجلو الدجى والأخريات رجوم

فهو أقرب إلى التقسيم الفلسفى منه إلى محسنات اللفظ وترصيعاته.

وغنى عن القول أننا لم نقصد بما تقدم أن ابن الرومى كان على سذاجة الجاهليين والمخضرمين فى صوغ الشعر وفهم فنون البلاغة. فإن هؤلاء كانوا يأتون بالقول البليغ ولا يعرفون علته، وكانوا يطربون للشعر ولا يتوخون مذاهب نقده، وليس فى وسع شاعر عباس أن يكون كذلك بعد ما أولع القوم بالبحث فى جميع العلل والأسباب واصطلحوا فى البلاغة على الحدود والأسماء وخرجوا من حالة "العفو" إلى حالة "الوعى" ومن سهو الجنة التى

كانوا غافلين فيها عن النعيم والعذاب والخجل والعيب إلى يقظة الدنيا التى يؤخذون فيها بالتكاليف ويدركون فيها المحاسن والعيوب، وابن الرومى اولى ألا يكون على تلك السذاجة الجاهلية أو المخضرمة وألا يسهو عن محاسن كلامه وعيوبه وهو الذى لم يسه قط عن شىء فيه ولم يكن له من هم إلا أن يحصى خطرات ذهنه وخلجات فؤاده، فهو شاعر ناقد وبليغ له مذهب فى البلاغة ورأى فى المعانى وحجة فى الاختيار. ونوادره فى ذلك قليلة ولكن النادرة التى ننقلها بعد كافية للإبانة عن وجود هذه الملكة فيه وعملها فى نقد كلامه كلام غيره. قيل أنه شمع هذه الأبيات:

أيها الظبى المليح القد مجدول مهفهف

أنا من ميلك فى مشـ ـيك مرعوب مخوف

لا تميلن فإنى خائف أن تتقصف

وهى لابن أبى فنن. فقال فى البيت الآخر: "إنما أراد منه أنه يميل من لينه ونعومة أعضائه فأسرف حتى أخطأ، وذلك أنه جعل اللين المفرط يتقصف. وإنما كان ينبغى أن يقول لو عقد لا نعقد من لينه فضلا عن أن يميل وهو سليم من التقصف" ثم أسرع إلى معارضة القائل بهذين البيتين:

أيها القائل إنى خائف أن تتقصف

ليس هذا الوصف إلا وصف مصلوب مجفف

فملكة الابتكار فى ابن الرومى كانت مصحوبة بملكة الانتقاد، فصاحته كانت فصاحة الذى يحاسب نفسه ويحمل تكليفه لا فصاحة غير المكلفين فى جنة السهو والتوفيق!

كذلك لا يفهم من سهولة شعره وتدفقه وأخذ بعضه بأطراف بعض أنه كان قليل التهذيب له والرجعة إليه. فربما فرغ من القصيدة وأفضى بها إلى ممدوحه ثم عاد إلى نتقيحها والزيادة عليها وردها مرة أخرى كما فعل فى

المهرجانية التى تتبعها وأطالها وكتب فى ذلك يعتذر إلى عبيد الله بن عبد الله:

قصيدة كرها مثقفها ... عليك إذا ثقفت على مهل
أعجلها الوقت عن رياضها ... فأقبلت ريضًا على عجل
لم أحتشم كرها عليك ولا ... سدى منها مواضع الخلل
لأننى عالم بأنك لا تعـ ... ـب فيما أصلحت من عمل
وليس مشلى ينام عن خلل ... فى مدح ممدوحه ولا زلل

على أنه - لطول رياضة الكلام الموزون - قد أسلست له طريقة فى النظم يقسر بها المعنى على الظهور ولو اضطر إلى الحشو واللف والاعتراض فلا تشعر إلا وقد استدار له البيت على أحسن تركيب وأصبح الحشو فى يديه حسنًا يزيد المعنى ولا يعيبه. فإذا أراد أن يقول "لا تكذب الأخبار بالهوى" ولم يساعده الوزن قال:

لا تكن بالهوى تكذب بالأخبا ... ر حتى تهين ما لا يهان

فأكسب المعنى قوة لم تكن له فى عبارته البسيطة.

لأنه حين صاغ البيت هذه الصياغة كأنما ينهى عن "خلق" التكذيب لا عن "فعل" التكذيب مرة واحدة أو مرات. فمعنى "لا تكن مكذبًا الأخبار بالهوى" غير معنى "لا تكذب الأخبار بالهوى". لأن العبارة الأولى تفيد زيادة فى النفى لا تدخل فى مدلول العبارة الثانية. تفيد النهى عن "طبيعة" التكذيب أو عن أن "يكون" الإنسان مكذبًا، ولا تقتصر على استنكار التكذيب فى هذه الحادثة أو فى تلك.

وإذا أراد أن يقول أن اليوم أفشل الطير وحال الوزن دونن هذا المعنى البسيط قال:

واعتبر أن أفشل الطير، فى الطير، وفينا، كروسات البوم.

فبلغ فى إظهار فشل البومة ما لا تبلغه العبارة الأولى. لأنه بين فشلها بالنظر إلى مقاييس الطير وبالنظر إلى مقاييس بنى الإنسان، فهى فاشلة كما يراها نظائرها فى عالم الطيور وفاشلة كما نراها نحن فى عالمنا الإنسانى، وذلك معنى لا تجده فى قول من يقول: أن البومة أفشل الطوائر، وتلك كانت طريقته فى الحشو "المبارك" المقبول، وفى تدوير النظم حتى يستدير له على أحسن تقويم.

* * *

وقد كان ابن الرومى كأبناء عصره يقدم الغزل بين يدى مدحه ووصفه جريًا على سنة لم يكن فى ثقافة عصره ما يدعوه إلى استغرابها والنظر فى تنقيحها، إلا أنه يعمل هذه السنة ويتصرف فى تقديم الهجاء بالغزل فلا يقصره على الوصف والمديح، فيخرج بذلك بعض الخروج من حكم التقاليد والمحاكاة العمياء ويختار لصناعته بعض الاختيار.

ألم تر أننى قبل الأهاجى   أقدم فى أوائلها النسيبا
لتخرق فى المسامع ثم يتلو   هجائى محرقًا يكوى القلوبا

وقد يتصرف غير هذا التصرف كما قال:

وأشغل قريضك بالنسب   وبالفكاهة والمزاح

كذلك كان يحكى أبناء عصره فى تصعيب اللفظ وتعمد الغريب حين كان ينظم فى الطرود ووصف الأسد وما إليه. لأن الشعراء العباسيين جعلوا الطرد خاصة وعرضًا للبداوة الشعرية ولافحولة العربية. فكانوا فى ذلك على حد ما يقال عربًا أكثر من العرب وجاهلين أكثر من الجاهلين.

أما لفظه من حيث هو صحيح وخطأ فلفظ عالم بالنحو مطلع على شواهد العربية ولا سيما فى القرآن. ومن هنا لم يذكر كلمة "أشياء" إلا

ممنوعة من الصرف، وهى مصروفة فى قول القياسيين من النحاة لأنها جمع شىء. فهى أفعال جمع فعل وليست فعلاء مؤنث أفعل التى تمنع من الصرف، فمن المواضع التى وردت فيها الكلمة قوله: "حرمت بالمشيب أشياء حلت" وقوله: "قبحًا لأشياء يأتى البحترى بها" وقوله:

فيك أشياء لو وجدن قديمًا نظمتها الملوك فى التيجان

وقوله:

فيك أشياء من يواليك مسر ور بها والعدو منها مغيظ

وقوله:

وإليك الشكاة منها ومن أشـ ـاء تبتز ذا الحجا معقوله

وقوله:

يا حور ما للجبيب يفعل بى أشـ ـياء لا يستحقها الحرج

وقوله:

وفيك أشياء صالحات حماكها الله والرسول

وإنما تابع المفسرين فى هذا ولم ينابع القياسيين من النحاة لأن كلمة أشياء وردت فى سورة المائدة ممنوعة من الصرف، إذ جاء فى الآية : "يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم" بفتح الهمزة فى أشياء، وتعليل المفسرين لذلك "إن أشياء هنا اسم جمع كطرفاء غير أنه قبلت لامه فجعلت لفعاء، وقيل أفعلاء حذفت لامه - جمع لشىء كهين أو شىء كصديق فخفف: وهذه المخالفة للنحاة القياسيين هى كما ترى أدل على العلم منها على الخطأ، فلم يكن ابن الرومى ممن يسهل وقوعهم فى الخطأ النحوى وإلا لظهر منه ذلك فى مواضع شتى مع إطالته وإكثاره وجرأته على تذليل النحو لمراده. ونقول جرأته لأننا لا نعد من خطأ الجهل قوله:

دعنى وإيا أبى على الأعور المعور الخبيث

إذ لا يخفى على المبتدئ أن "أيا" ضمير فصل يتصل بالضمائر الموصولة ولا يتصل فى الكلام الفصيح بالأسماء. فأبن الرومى إذا وصل الضمير المفصول بالاسم لا يفعل ذلك جهلا بالقاعدة التى يعلمها المبتدئون وإنما يفعله وهو مجترئ عليه عالم بمكان هذه الكلمة من الخطأ والصواب، وعلى ذكر التجوز فى صرف الممنوع ومنع المصروف نقول أن ابن الرومى كان من أقل الشعراء تجوزاً فى "عروضه" وأكثرهم حرصًا على أوزانه. ولا بأس بأن نذكر له هنا بيتين قالهما فى مرض وفاته ورواهما عنه أبو عثمان الناجم وهما:

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك للعشيرة دون لومك

تمتع من أخيك، فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك

فقد ذكرهما المعرى فى رسالة الغفران فعاب عليهما أنهما مقيدان وقال "وما علمت أنه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيداً إلا فى بيت واحد يتداوله رواة اللغة، والبيت:

كان القوم عشوا لحم ضأن فهم تعجن قد مالت طلاهم

وهذا البيت مؤسس، والذى قاله ابن الرومى من غير تأسيس

والحق أنه لا خلل فى وزن البيتين من حيث العروض، وإنما كان المعرى فى نقده هذا أشبه بالفقهاء منه بالأدباء، ولو اختل البيتان أشد خلل لما قيست بهما صناعة ابن الرومى يلقى به إلقاء وهو يجود بنفسه

***

وقد نلاحظ على ابن الرومى تعبيرات كالتى تسمى فى عصرنا هذا بالتعبيرات الإفرنجية فى مثل البيت:

كما لو هجاكم شاعر حل قتله كذاك فأوفوا مادحًا دية القتل

وقد يلاحظ ذلك فى أكثاره الهتفات مثل قوله "ضلة! ضلة" و"سوأة سوأة" و"فى سبيل الشيطان منك نصيبى" إلى أشباه ذلك من اللفظات الكثيرة فى تعبيرات اللغات الأوروبية. فيرد على الخاطر أنه كان لهذا - يعرف الإغريقية ويتأثر بها فى أسلوبه، أو يرد على الخواطر أن هذه التعبيرات من أثر العجمة فى سليقته والعادة فى لسانه. ولكنها ملاحظة لا تستلزم هذه النتيجة ولا نستطيع أن تعززها بملاحظات أخرى من قبيلها. ومن السهل جدًا أن نقول أن أمثال تلك التعبيرات المترجمة ومعالجة التدليلات المنطقية فى كلامه ومساجلاته، وأن الهتفات مألوفة فيمن كان له مزاج كمزاجه المتفز عربيًا كان أو أعجميًا بلا خلاف. ذلك أسهل من القول باللغة الأعجمية الذى استضعفناه فيما تقدم من الكلام على تعليم الرجل ومعلوماته.

***

فى أى باب من أبواب الشعر كان ابن الرومى يجيد خاصة؟

سؤال لابد أن يخطر لنا فى معرض الكلام على صناعته وأسلوبه، وأرى أن الكثيرين سيقولون - أو قد قالوا - أنه هو باب الهجاء لأنه اتشهر به وشاع أنه مات بسببه، فلنعلم إذن أنهم مخطئون فى هذا الحكم لأن ابن الرومى كان يجيد فى أبواب الشعر كلها على حد سواء ويعطى قصائده جميعًا بمقدار واحد من عنايته وإتقانه.

وخذ مثلا اقواله فى الحكمة وهى أقل ما اشتهر به تجد له مئات من الأبيات التى تسير مسير الأمثال وتخرج من عداد تلك الأفكار المطروقة التى يتفيهق بها من يحبون الاشتهار بالبيت الحكيم والمثل السائر، ولو أننا رجعنا إلى أبياته التى مرت بنا فى هذا الكتاب لما ألفينا بينها تفاوتًا فى الطبقة بين غرض وغرض وباب وباب، وإنما اشتهر بالهجاء لأن الجاء أشهر وأسير لا

لأنه يجيد فيه أكثر من إجادته فى المديح أو فى الغزل أو فى الصفات، فلو أن الألسن تتساير بالوصف البارع كما تتساير بالهجاء اللاذع لغطى وصف ابن الرومى على هجاءه لكثرة ما قال وأجاد فى الوصف حتى خلال قصائد الهجاء.

وأغرب من هذا الاستواء فى طبقة القول أنك تقرأ الأبيات التى مرت بك فى هذا الكتاب فتحسب أنها نظمت كلها فى عمر واحد ولا تدرى أيها شعر الشباب وأيها شعر الكهولة والشيخوخة إلا ما يندب فيه شبابه ويتبرم بسنه، فانظر مثلا إلى الأبيات التالية:

قل لايوب والكلام سجال ... والجوابات ذات يوم تدال

اسكنوا بعدها، فلا تذكروا الـ ... ـؤم، حياء. فأنتم الأجال

أنا شؤمى فيما تقولون عزا ... ل، ولكن شؤمكم قتال

بالذى أدرك المؤيد منكم ... وابن سعد أن تضرب الأمثال

زرتموه والصالحات عليه ... مقبلات فأدبر الإقبال

حين درت له أفاويق دنيا ... ه دلفتم له فكان الفصال

أن شؤمًا حلت به عقدة الملـ ... ـك لشؤم تنزول منه الجبال

ليس بدعًا من الحوادث أن يعز ... ل وال وتخفق الأمال

إنما البدع أن تزول أمور ... لم يكن يهتدى إليها الزوال

كالذى حاق بالمؤيد منكم ... بعد ما نوطت به الأمال

ذلك الشؤم يا بنى أم شيخ ... يمكن القائلين فيه المقال

ذاك شؤم فيه سمام الأفاعى ... ناجز النقد، ليس فيه مطال

ذاك شؤم كالسيل عفى على الفـ ... ـطر جلال كما يكون الجلال

ذاك شؤم لو جاور البحر يومـ ... ـين لأمسى وليس فيه بلال

فهذه قطعة نظمها فى نحو الثلاثين من عمره، لأنها نظمت فى نكبة "المؤيد". فقابل بينها وبين القطعة التالية التى نظمها وهو فى الخامسة والخمسين.

كبرت وفى خمس وخمسين مكبر ... وشبت، فالحائط المها عنك نفر
إذا ما رأتك البيض صدت وربما ... غدوت، وطرف البيض نحوك أصور
وما ظلمتك الغانيات بصدها ... وإن كان من أحكامها ما يجور
أعر طرفك المرآة وانظر فإن نبا ... بعينيك عنك الشيب فالبيض أعذر
إذا شئت الفتى وجه نفسه ... فعين سواه بالشناءة أجدر

أو قابل بينهما وبين هذه القطعة التى نظمها قبيل وفاته على لسان العزيز:

أيادى بنى الجراح عندى كبيرة ... وأكبر منها أنها لا تكدر
هم القوم ينسون الأيادى منهم ... عليك، ولكن المواعيد تذكر
وإن كنت قد أهملت بعد رعاية ... وأغفلت حتى قيل أشعت أغبر
وقلدت شغلا ضره لى معجل ... سريع، وأما نفعه فمؤخر
أروح وأغدو فيه أنصب عامل ... واصفرة كفا، فكم أتصبر؟!
أيعطش أمثالى ووارديك فائض ... ويجذب أمثالى ووارديك أخضر
أبى ذاك أن الطول منك سجية ... وإنك بين الحمد بالطول تعمر
وأنك لم تؤثر على الحق لذة ... بحكم هوى، فالحق عندك مؤثر
وما زلت تختار الأمور بحكمة ... فأفضلها الأمر الذى تتخير

فانظر حين تقرن هذه الأبيات بعضها ببعض هل ترى بينها من تفاوت فى الصناعة أو اختلاف فى روح الشعر ونسج الكلام وطريقة التركيب وتناول

المفردات؟ فهى وغيرها من قصائده التى نظمت من العشرين إلى الستين طبقة واحدة من هذه الناحية لا تستطيع أن تتحقق فيها. مزية سن على سن ولا فترة على فترة. وتعليل ذلك صعب فى الشعراء المطبوعين غير ابن الرومى، أما هو فلا صعوبة فى تعليل هذا الاستواء فى تركيبه والتشابه فى روحه ونسجه، لأنه ينسج منم غزل واحد وبضاعة واحدة، وهى الشعور الجديد أو شعور الطفولة الفنية التى لازمته فى حياته من المبدأ إلى النهاية. فلم يتغير فيه إلا القليل بعد ما درس نصيبه من اللغة والعلم واستوفى مادته من الفن والصياغة، وكأنه الشجرة التى نضجت مبكرة وبلغت تمامها ورسخت فى تربتها، فثمرتها اليوم كثمرتها بعد سنوات عشر أو بعد عشرين وثلاثين، ولا عيب فى ذلك إلا أن تكون الثمرة بسرًا لا خير فيه. أما إذا كانت ثمرة جنية كأطيب الثمر فى النضرة والحلاوة فالتبكير إذن أصلح من التأخير والبقاء على طبقة واحدة أحب وأكمل من التغيير.

فالكلمة الأولى والأخيرة فى هذا العبقرى النادر أنه كان شاعرًا فى جميع حياته حيًا فى جميع شعره، وأن الشعر كان لأناس غيره كساء عيد وحلة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة بل كان له جسمًا لا تكون بغيره حياة.

* * *